

الظماً !!

انطلق حذيفة العدوى يوم اليرموك - وقد احتدم القتال بين المسلمين
والمشركين - يبحث عن ابن عمه ، الذي بعث في طلبه ، وأرسل إليه
يستدعيه ..

لم يكن حذيفة يدري لأي غرض يريد ابن عمه ، غير أن هذا لم
يكن ليشغله كثيراً ، وإنما الذي كان يشغله في ذلك الوقت ، هو القتال
الدائر على قدم وساق ، بين دعاة الحق والعدل من المسلمين ، وطغاة الباطل
والزور من المشركين والروم .. لقد ظل المسلمون مدة مجتمعين لا يتقدمون
خطوة واحدة ، وكأنهم يخشون هذه الكثرة الخيفة من جيوش الروم ،
وما كاد يقبل خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، من فارس ببعض جنده
هناك ، حتى أثار الحمية في القلوب ، وأوقد النار وأشعلها ، وأصبح جيش
المسلمين متحفزاً متوثباً ، يتطلع إلى الموت لينال بذلك أعظم ما يرجو ويتمنى ..
يتطلع إلى الشهادة وإلى الجنة ، التي وعد الله بها عباده المتقين .. !!

وكان حذيفة العدوى يشعر بالعزة الإسلامية تملك عليه نفسه ،
والكرامة السامية تسيطر عليه ، فلقد أوغل جيش المسلمين في جيش
الروم ، وأمكنه أن يزحزح هذه الجموع الكثيفة ويجلوها عن أماكنها ،
ومعنى هذا الانتصار المظفر لجيش التوحيد ، والهزيمة الساحقة لجيش
الكافرين الضالين ..

ولم ينس حذيفة وهو يبحث عن ابن عمه أن يحمل معه قليلا من الماء ،
فالجندي في الميدان ، والمحارب في الجيش ، لا يحتاج إلى شيء حاجته إلى
الماء ، يحفظ الرمق ، ويمسك الحياة ..

وتلك شعور عجيب ، انقبض له قلبه أولا ، وارتجف فؤاده رجفة
خفيفة ، فاقدم طاف بفكره خاطر سريع ، فمن الجائز أن يكون ابن عمه قد
لحق حتفه مع من استشهدوا هذا اليوم ؟ وما المانع أنه يكون سعيداً بهذا
الاستشهاد ، وأن هذا الماء الذي يحمله إليه ، لا يدري سيكون من نصيب
أى إنسان ؟ .

إنه يحمله إليه حقاً ، فإن كان حياً يسقيه بعضه ، ويمسح وجهه
بالبعض الآخر ، لينعشه ، ويذهب عنه وعناء الميدان ، وغبار الطريق ،
وإن لم يجده حياً سقى به من يجده من أفراد المسلمين ..

وما كاد حذيفة العدو يتجه يمينا ، وينحرف قليلا ، حتى وجا
ابن عمه حياً ، فأقبل عليه يقبله ويعانقه ، ويفبطه على هذه الطعنات التي
أثقل بها جسمه ، فلا يمكنه لهذا أن يتحرك ، من كثرة ما ناله من طعنات
الرماح ، وضربات السيوف ..

لم يكن متألماً ، ولا متبرماً .. بل على العكس كان فرحاً مسروراً ،
يفيض وجهه بالبشر والحبور ، وكأنه أدى واجبه على خير ما يحب ، وأفضل
ما يرجو ، ويود أن يوهب من القوة ، ما يستطيع بها أن يقاتل مرة أخرى ،
ليشفي غليله من هؤلاء القوم ، الذين لا دين لهم ، ولا عقيدة تعصمهم من

الشر ، وتباعدا بينهم وبين الإثم والفجور .. هؤلاء الذين يساقون إلى القتال سوقاً كما تساق الأغنام إلى المذبح ، ليس لهم هدف سام يهدفون إليه ؛ ولا غرض نبيل يعملون على تحقيقه ، وإن بذلوا في سبيل ذلك الدماء والأرواح ..

وسرّ حذيفة من ذلك ، وعجب لهذه الروح ، التي تسيطر عليه وهو يعاني آلام النزاع ويقاسى سكرات الموت، وود أن تجيء ساعة هو الآخر؛ وهو على هذه الحال السارة .. هذه الحالة النفسية ، التي هي أساس انتصار الجيوش، وتقدم الأمم ، وأى دين يربى النفوس ، ويجعلها تأتي بالعجائب ، غير الدين الإسلامي ، الذي عاجل أدق الأمور ، ونظر بعين الاعتبار إلى كل ما يصلح أمر الإنسان ، ويفيده في دنياه وأخراه ؟؟ ! .

وكادت تصرف هذه المشاعر حذيفة عن الغرض الذي جاء من أجله ، لولا أن تذكر الماء الذي معه ، فأمسك به في الحال وقال لابن عمه في عطف ورفق :

— أسقيك من هذا الماء ؟ .

فأشار إليه ابن عمه في صوت خافت . قائلاً :

— نعم .. !!

وما كاد الجريح يمسك بالماء في يديه ، ليرفعه إلى فيه ، حتى ارتفع في الجو صوت متألم ، يئن صاحبه أئيناً مكتوماً ؛ قائلاً :

فأبعد الماء عن فيه ؛ وقال لحذيفة :

- انطلق به إليه ..

— انطلق به إليه؟! كيف هذا؟ .. اشرب أنت أولاً .

— لا .. فليست نفسي بأعز من أية نفس مسلمة ..

وذهل حذيفة لهذا الإيثار العجيب .. إن ابن عمه في مكنته أن يشرب ولو قليلا من هذا الماء ، ولكنه لم يفعل خشية أن يكون صاحب هذا الصوت أحوج منه إليه ، فاحترم هذه الرغبة ؛ ولم يرد أن يحرمه هذا الفضل الذي يريد أن يحصل عليه ؛ وتلك الرتبة التي يريد أن ينالها . فذهب بالماء صوب الصوت الذي سمعه ، وتطلع هنا وهناك ؛ فإذا به يجد هشام بن العاص .. !!

ونظر إليه حذيفة نظرة فاحصة ؛ فوجده يعاني من الألم ما ينوء بحمله إنسان ، فقال له في عطف :

— آسقيك من هذا الماء؟! .

فقال هشام بن العاص في صوت لا يكاد يسمع

— نعم ..

وما كاد الماء يصل إلى فيه حتى سمع آخر يهتف في ألم وحرقة ،

ويتوجع في عنف قائلا :

فأبعد هشام الماء عن فيه بسرعة ، وقال لحذيفة :

— انطلق به إليه ..

ووقف حذيفة دهشاً حائراً أمام هذا السمو النفسى العجيب ، إن فى وسع هشام أن ينال شيئاً من هذا الماء ، يبلى به حلقه ، ويمسك عليه الحياة وهو فى أدق لحظاته ، وأخرج ظروفه .. فى هذا الوقت العصيب ، الذى لا يذكر فيه الإنسان العادى إلا نفسه فحسب ، أما غيره من ذوى الحاجات ، فلا يكاد يفكر فيه ، ولا ينظر إليه ، فكيف بهشام يفعل ما فعل ابن عمه وكأنهما فكرا بعقل واحد ، أو بمعنى أدق ، شعرا بشعور متحد ..

ما أعجب هذه النفوس الإسلامية الرفيعة ، التى تعطى للتاريخ أروع المثل ، وأرفع الأحاسيس ، وأعظم التضحيات ، التى يتضاءل بجانبها تاريخ أى عظيم من العظماء ، وسيرة أى بطل من الأبطال ، من يوم أن خلق الله الدنيا ، إلى هذا التاريخ ..

وتناول حذيفة المدوى الماء ، واتجه به إلى ناحية الصوت ، يبحث عن صاحبه ، وقد استصغر نفسه أمام هذين النفسين ، وراح يفكر فى سرعة خاطفة ، ويسائل نفسه فى صراحة وإخلاص :

هل يكون إحساسه كإحساس ابن عمه ، وإحساس هشام ، حينما يكون فى مثل موقفهما ، أشد ما يكون أحدهما حاجة إلى الماء ، الذى عليه عماد الحياة ، فى وقت يشتري الإنسان اللحظة من الحياة بما ملك من متاع

الآخرة قليلاً؟ هل يفعل مثل ما فعل هذان الرجلان ، و يؤثر غيره على نفسه ، دون أن يعلم من هذا الغير الذي يؤثر؟ أجل لا يدري عن ذلك الغير ، سوى أنه مسلم وكفى ، فهذه العلاقة هي عنده كل شيء ، ولا يعنيه بعد هذا أية علاقة كائنة ما كانت .

هل يكون شعوره على هذا الوضع من الإيثار؟؟ .

من يدري؟! إنه التوفيق الإلهي ، فهنيئاً لهذين الرجلين ، اللذين نجحوا في الاختبار .. اختبار النفوس ، التي يسيطر عليها دائماً الشيطان ، إلا من عصم الله .. !!

إن خير ما في الدنيا عمل صالح ينفع في الآخرة ، ويرضى عنه الله سبحانه وتعالى ، ويجازى به الإنسان خير الجزاء ، فمتى يعلم جميع الناس هذه الحقيقة ، فيعملوا لها جادين ، ويقبلوا على الله متناسين كل شيء سواه ، رافضين كل عمل لا يوصل إليه ، ولا يراد به غير وجهه الكريم ، لأن كل عمل لا يقصد به وجهه هباء لا قيمة له .. !؟

واتجه حذيفة صوب الرجل ، وتطلع هنا وهناك بين أشلاء القتلى ، فرآه يعاني آلام النزع ، وما كاد يصل إليه حتى وجدته قد مات .. !!

ووضع أذنه على قلبه ، فلم يسمع نبضاً ، وقلبه في لطف ورفق ، فإذا بجميع بدنه قد برد ، ولم يعد يتردد في صدره نفس .. يا لله لقد فارق الرجل الحياة ، وهو على هذه الحال من الظمأ والعطش ، فأى شهادة عظيمة هذه الشهادة ، التي تدفع به إلى زمرة الأنبياء والصدّيقين ، يحشر معهم يوم

القيامة ، فيطيب ذكره ، وتحسن خاتمه ، وينال بها عظيم الأجر ،
وجليل الثواب !!

وأسرع حذيفة ليسقى هشاما قبل أن يموت هو الآخر ، فإذا به قد
مات كذلك ، وخرج من هذه الحياة التي يتكالب عليها الناس ، وتمتد
لهم فيها آمال كبار ، موصولة لاتقطع ولا تنتهى ..

إذن فليسرع إلى ابن عمه قبل أن يفوت الأوان ، ويموت كما مات
هذان الشهيدان ، يحترقان بألم الظمأ ، ويتلظيان بنار العطش .. فليسرع
إليه عله يدركه قبل أن يقضى ..

ولكن .. أراد الله أن يجده كما وجد زميليه ، اللذين آثرهما على
نفسه ، وآثرهما بالحياة دونه ، فأراد الله أن يخرجهما من هذه الحياة دون
أن تثقل عليهم جميعاً بمطالبها ، وتؤلمهم بإلحاحها ، وتدنسهم بآثامها ،
وتضنيهم بأقذارها وأوساخها ..

ووقف حذيفة العدو يقلب الطرف بين هؤلاء الثلاثة ، بعد ما جمع
بينهم ، وهو يعجب من قوة الإيمان ، ويتمنى أن ينال هذه المرتبة السامية ،
ويبلغ هذه الدرجة العظيمة . وأن يوقه الله لموت شهيداً على هذه الحال
من الإيثار .. !!